العادات والتقاليد المغربية في نظر الغربيين

عبد العزيز بنعبدالله

كان للرحالين الأجانب إلى المغرب دور في وصف مظاهر الحضارة المغربية في تفاصيلها اليومية خاصة منها العادات والتقاليد والأعراف وقد سجل لنا (دوكاستري) صفحات را ئعة عن الرحالين الفرنسيين بالمغرب (من عام 1520 إلى 1660 م) (كتاب عملاء ورحالة فرنسيين بالمغرب – طبعة 1911) وقد استقلت بذلك خلال الحماية الفرنسية "مصلحة أخبار الرحلات للمغرب (طبعة 1925) وقد بلغ هذا النوع من الدراسات و الرحلات إلى Warton Edith والواقع أن أحسن كتاب صنف في الموضوع "رحلة وارتون إيديث المغرب (2062) كتابا حسب فهرسة وضعها كل من (لامبير) و(روبيير براون) نشرت في لندن ولكن الكتبي الباريسي (جونتير) أوصلها عام 1914 إلى (2285). وقد انطلقت هذه الرحلات خاصة بعد انتصار المغرب في (معركة وادي المخازن) حيث صدرت في غرناطة Perrot (عام 1537 م) أول رحلة إلى إفريقيا في ثلاثة مجلدات للكاتب الإسباني (مارمول) لم تترجم إلى الفرنسية إلا عام 1667 بقلم وقد ترجمت إلى العربية بالمغرب عام 1984 م غير أن هذه الرحلات تداولت جوانب شتى من الحضارة المغربية .d'Ablancour اقتصاديا وسياسيا فلم يكن لوصف العادات والتقاليد حظ إلا من خلال ارتسامات صورت بعض مظاهر الحياة في المجتمع المغربي وقد الإنجليزي برحلة في عهد المنصور السعدي وصف فيها كثيرا من العادات والأعراف حول الشعائر الدينية Robert Cottington قام قد سبقه (عام 1604 م/ 1013 هـ) John Smith والزواج والموت والقضاء وحتى أصناف القنائص والصيد وكان جوهن سميث برحلة إلى المغرب نشرت بالأنجليزية ترك لنا فيها وصفا رائعا عن مراكش عرج فيها على كثير من الأ عراف (راجع وثائق دوكاستري (– السلسلة الأولى – السعديون م-5 ص 266 عام 1925

في رحلته (عام 1615 م) عن عادات غريبة مثل ألعاب مصارعة الثيران بفاس في عهد W. Lithgow – وقد تحدث ويليام ليتكوف .في رحلته عن ألعاب الكلاب والثيران في عهد المولى عبد الملك Edmon Hogan السعديين كما تحدث هوكان

قد أسر فكتب رواية بعنوان (الأسير السعيد) حكى فيها وقائع أسره في سلا وتطوان والجزائر نشرت (عام De La Martinière وكان 1674.) لم تخل من صور عن حياتنا التقليدية

برحلة وصف فيها المملكة وحالتها الاجتماعية من خلال أعراف وعادات مع قضايا مختلفة Saint Amans وبعد ذلك بثماني سنوات قام عام 1693) أكد فيها ما رواه خلفه مع إضافة ما جد في) Jean B. Estelle تمس الجانب التقليدي من تطورات المجتمع وقد أعقبه جان) Jean Potockiالموضوع (راجع نص هذه المذكرات في الوثائق الغميسة م -4 ص 54) وتوالت الرحلات حيث وصف بوطوكي) جولته عام (1791) بالمغرب في كتابه (رحلة إلى إمبراطورية المغرب) بالإسبانية (طبعة برشلونة) وتواصل التنافس بين أنجلترا لتجميع الوثائق حول مراكش وسوس والشياظمة وحاحة (من عام 1630 إلى (Solange) (وفرنسا التي وجهت الرحالة (سولانج 1853) وسجل ذلك في مخطوط مؤرخ ب1847 بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية ولم يكن طبعا في هذا السجل ذكر للعادات إلا من .حيث هلهلة بعضها أو شذوذه بالنسبة للفكر الأجنبي

وما كاد القرن التاسع عشر يستهل حتى انهالت على المغرب ضربات من كل جانب تبلورت في رحلات "علمية" تنكشف عن الحالة تحت ستار رحالة مسلم يحمل اسم (علي باي العباسي) حيث Badia y Leblich الاجتماعية والعسكرية بالمملكة برز فيها باديا ليبليش قام بجولة استمرت أربع سنوات (1803-1807) سجل خلالها مذكراته في ثلاثة مجلدات نشرت بباريس (عام 1884) وقد اتسمت هذه الرحلة بأهمية خاصة حدت كثيرا من المؤرخين إلى تحليل أبعادها لأنها شملت وصفا كاملا لمختلف الأوضاع خاصة منها الاجتماعية وقد

في رحلة إلى فاس ومراكش محمد لها بكتاب حول أول سلطان علوي هو المولى الرشيد وأصبحت (1818) (Mouette) سبقه مويت هذه الرحلات تتسم بطابع دولي متناسق في سلسلة ما عرف ب

نظرة للعالم) تتضمن معلومات دقيقة عن حواضر المغرب الكبرى أصبح فيها حظ الأسد لعادات المغرب وتقاليده في غضون تتبع أحداث) مختلفة توالت على المملكة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وانفتح المغرب على مصراعيه لرحلات متوالية قام بها ممثلون عن مختلف الأجناس تواكبت إلى ما قبيل الاستقلال عام 1956 تركز برحلة (خلال القبائل المغربية) عام 1948 (نشرت James Haldane بعضها حول الأعراف والتقاليد حيث قام كل من جيمس هالدان برحلة أخرى بعنوان (آفاق مغربية) حللت فيها موارد المغرب وعاداته ومعتقداته Catherine Tollever في 192 ص) وكذلك كاثرين (مع صور عن الفنون و الفولكلور (طبعة الرباط 1952.

Augustin ولعل الرحلات الألمانية إلى إفريقيا عامة والمغرب خاصة تشكل رصيدا لابأس به في هذا المجال منها مذكرات أغستن إلى الجزائر والمغرب) Maltzan Heinrich وصف لوضع المغرب عام 1830) مع صور بيانية (ورحلة مالتسان) Freiherr Von (ثلاثة أجزاء طبعة ليبزيغ 1868) تحدث فيها عن حياة البدو والبربر والصحراء المغربية ووصف بعض العادات كالحمام المغربي وما والاه من أعراف حول الأعراس ومختلف أصناف الاحتفالات التقليدية.

برحلة وصف فيها البلاد والسكان (طبعة Fischers Reise واتسع نطاق هذه الرحلات في إطار الشمال الإفريقي حيث قام فيشر (زوريخ 1904).

سجل فيها ارتساماته حول العادات المغربية (Metz 1924 انطباعات في رحلة للمغرب والجزائر) (طبعة) Stawder كما صنف ستاودر في (رحلة من مراكش حتى فاس : بلاد المغاربة المستيقظة Wehrli عن رمضان والمرأة وغير ذلك من مراسم المجتمع ثم أعقبه ليوفيرلي من حضارة القرون الوسطى) (طبعة زوريخ 1930) تضمنت ستة عشر فصلا عن تاريخ الشعب وأعياده مع إبراز الفروق بين البربر والعرب واليهود والزنوج والجماعات الفرنسية.

تأثراتي في رحلتي المغربية) (طبعة ستراسبورغ 1934)) Wohen Journal Industrielleواختصت الجريدة المصورة الأسبوعية في وصف عادات الأطعمة والأشربة في "مراكش المدينة البربرية " وقد تكللت هذه الدراسات بما كتبه (فايلاخدرولف) ونشره في (بون) عام 1962 وهو الجزء الثاني عشر من مجموعة (بلدان أفريقيا) التي تصدرها الجمعية الألمانية لإفريقيا تحدث فيها عن البلاد والسكان والقبائل وثقافتها وحياة مختلف طبعات الشعب مع فهرست للقبائل.

عنوانها(قصبة ويرير في جبال الأطلس) Burchardi Hoffmann وكانت تصدر بين الفينة والأخرى (رحلة) كالتي قام بها هوفمان حول حياة البربر وعاداتهم في الأطلس (1963)Atlantis نشرت في مجلة

وإلى جانب هذه الرحلات التي لم تتحدث عن العادات والتقاليد إلا عرضا اختصت دراسات أخرى في الموضوع نذكر بعضها مرتبا ألفبائيا : وهي

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والأسروية في زرهون -

Abdelouahed Ben Tahla – Moulay Idriss du Zerhoun,

Quelques aspets de la vie sociale et familiale

- الدار والقرية لدى بعض قبائل الأطلس الصغير

A. ADAM. La Maison et le village dans quelques Tribus

de l'Anti-Atlas, Hesperis, 1950

- عبادة المغارات بالمغرب

H. BASSET, Le Culte des grottes au Maroc, Alger, 1930

- الحياة الاجتماعية في جبالة والريف

BASSET – Larose , Paris 1926

- طقوس حول المطر

A. BEL, Quelques rites pour la pluie

(XIVème Congrès Orient. Alger) 1905

-) النفس المغربية من خلال المعتقدات وآداب السلوك)

F. Bonjean – l'âme marocaine, vue à travers les croyances et la politesse

Robert, 1948) 9 p 8)

- غرائب الحياة الإسلامية : عادات سكان الجبال وأعرافهم مع صور متعددة

BORY Paul , Mysterious Islam Life

- طقوس طبائعية في صفرو

2 /1918 L. Brunot, Cultes naturiotes à Sefrou, Arch. Berb.

أعياد وأعراف موسمية لدى بني سنوس -

E. Destaing , Fêtes et Coutumes Saisonnieres chez les Beni - Snous,

906 1 R. Afr. ,

السحر في المغرب -

- (28 (320 p 19 E. Elsner – The Magic of Morocco. London,

مراسيم الأعراس والجنائز والدين -

1935 W. Fulan, Peeps at Many Lands Morocco-London,

أعراف وعادات المسلمين -

(p 303 (1949 E.F. Gautier, Mœurs et Coutumes des Musulmans – Payot -

بقايا وثنية في الحضارة المحمدية -

1935 R. Godet , Survivances paiennes dans la civilisation mahometane, Paris,

كتاب بالألمانية يعطينا صورة عن عادات المغرب وتقاليده أوائل القرن العشرين -

Gutezeit, Johannes, Auf Der Flucht Zu Fisr Durch

(آيت عياش الأطلس المتوسط – دراسة نظام اجتماعي في المغرب – جامعة تشيابوريس 1977) -

John Michigan

.(صور مغاربية وطقوس المياه) -

L. Joleaud, Gravures Rupestres et Rites de l'Eau, Journal Soc. Africanistes, 1933-4

(ألفاظ وأشياء بربرية (أسماء وحفلات نيران الفرح -

E. Laoust, 1) Notes et Choses Berberes , Paris 1920

2) Noms et Cérémonies des feux de joie, (Hesperis, 1921)

(عادات الحريم بالمغرب) -

A.R. Lens – Pratiques des Harems Marocains- PARIS – Geuthner, 1925

. (عادات فلاحية وأفراح موسمية في قبائل جبالة ووادي ورغة) -

E. Levi – Provençal 1) Pratiques Agricoles et Fêtes Saisonnières des Tribus Djebala de la Vallée Moyenne de l'Ouarghah, « Archives Berbères »

Vol. 3 Fasc. I , 1918.

2) Textes Arabes de l'Ouargha , Dialecte des Jbala, Paris, Leroux, 1922.

(بعض الظواهر السكانية لقبائل برر السوس الأعلى) -

La Porte des Vaux (A. de 1947)

المرأة المغربية : دراسة اجتماعية)(طبعة ثانية مصورة) مدريد 1881 /215 ص) -

Ovilloy Canales, Felipe

Manuel Hernandez.

(الأعراف والعادات في عيد المولد النبوي) -

Paul Paquignon

Le Mouloud au Maroc

R.M.M. XIV (1911) (525-536)

أعراف وطقوس الاستسقاء -

Probst- Biraben, les Rites d'Obtention de la Pluie, Ibid, 1932-3

(سلطان الطلبة في طليطلة في القرن الثامن عشر) -

Simon de la Rosa y Lopez Sevilla 1904 (p. 45-60)

(بقايا جاهلية في بلاد زغاوة) -

M.J. Tubiasna (Survivances Preislamiques en Pays Zaghawa) , 1964.

حفلات الزواج بالمغرب -

Westermarck Les Cérémonies du Mariage au Maroc, Traduction J. Arin,

Paris 1921

(الزواج المغربي) (من ص 59 إلى 98) -

Edgar Zohiman Town and Country 1937

(المغرب – لندن 1935) -

(نظرات حول العادات والأعراس والجنائز)

W. Fulan

(عادات وأعراف قبيلة يفوية بالريف – محاضرة بتطوان 1948) -

Gomez Martinez

(مع قبائل الريف – لندن 1931) -

(مذكرات حول عديد من الأحداث والعادات)

Terhorst Bernard

ولا تخلو تحليلات الكثير من الغربيين لتقاليد المغرب واعرافه من مظاهر غير بعيدة عن الحقيقة ولكن الإغراض لدى بعضهم يرجع احيانا على قصر النظر وسوء التقدير وإلا فمفهوم الحياة الحياة في وقائعها لا يختلف بين بني الإنسان كما يقول كوستاف لوبون (حضارة العرب ص 42) وإنما تمتاز بعض مظاهرها تحت تأثيرات مختلفة قد ترجع لعامل الصبغة الحضرية أو البدوية ولذلك لاحظ ابن خلدون (المقدمة ص 25 طبعة 1320) تشابه أسلوب الحياة بين بدو الحجاز وبدو إفريقيا فتماثلت العادات والأعراف وازدادت تناسقا تحت تأثير " تحكيم العادة " فكان عمل تونس ومصر والمغرب والأندلس واحدا (كما يقول التوزري (توضيح الأحكام ج 1 ص 22) فهذه الوحدة في الأعراف والتقاليد لدى الكثير من العرب والمسلمين – عدا بعض الاختلافات المحلية – راجعة إلى ترجيح مصلحة الأمة وما تقتضيه حالتها الاجتماعية وذلك لتبدل العرف وضرورة جلب المصلحة ودرء المفسدة (حاشية الوزاني على شرح التاودي للامية الزقاق ص 263) وقد غطى هذا العمل سلوكات الأمة منذ القرن الخامس الهجري فكان المبنى على " المصالح المرسلة" والعوائد وسد الذرائع وإزالة الأضرار وارتكاب أخفها وقد نتج ذلك عن وجود وقائع جديدة اضطر الفقهاء من أجلها إلى اللجوء للقياس مع حق التصرف طبقا الأندلسي والفاسي والرباطي والسوسي وغيره فكان (Jurisprudence) للمقتضيات المحلية زادتها شيوعا ورسوخا ماجريات العمل .لمنطقة سوس والصحراء النائية ومختلف الفيافي جبالا وسهولا عرفها (راجع ألواح جزولة لمحمد السوسي العثماني

"وقد نص المعيار للونشريسي (ج1 ص 286 طبعة فاس الحجرية) " أن ماجرى به عمل الناس بغير المذهب للضرورة – سائغ جائز

في كتابه (محمد الإسلام ص Lammens (وقد أدرك بعض العلماء الغربيين هذه المثالية في التقاليد والأعراف العربية عامة فحلل (لامانس أسس هذه المثالية المتجلية في الكرم ورقة البيئة وإنسبة السلوك وروح المسالمة ورعاية حقوق Le Berceau de l'Islam (208 في كتابه R. Montagne الغير ولذلك أكد (كوستاف لوبون (ص 415) أن العرب لم يعرفوا قط نظام الإقطاعية وسجل ذلك مونطاني .في كتابه حول مراكش Doutté (قرى وقصبات البربر – طبعة باريس 1930 – المقدمة) مفندا مقولة دوتي

أكد " أن Renaud وقد وصف بعض الرحالين الغربيين اختلال السلوك واضطراب المغاربة بسبب وفرة الأوبئة بالبلاد ولكن رونو حواضر فاس ومكناس ومراكش لم تعرف أي وباء منذ أكثر من مائة عام " (مجلة هسبريس م. 26 عام 1939) وأبرز سوردون في كتابه (المؤسسات والأعراف ص 215) أن اقتصاد المجتمع وهو مظهر لعاداته قد توفرت فيه كل مقتضيات الحياة الناعمة Surdon في كتابه(تاريخ الرباط ص 54) مجالا آخر للتواكب الاجتماعي التقليدي Caillé التي تتوفر اليوم في المجتمع العصري كما لاحظ كايي في القارة السمراء وهو وجود ما بين ألف وألف وخمسمائة جمل تنتقل يوميا من جنوب المغرب إلى شماله لضمان استمرارية الصلة بين .مختلف الأطراف الإفريقية

في كتابه (النقابات الإسلامية – طبعة باريس 1925 ص 38) عن عادات وأعراف الحرف والمهن Massignon وتحدث ماسينيون في كتاب آخر سماه (فرنسا في الشمال الإفريقي ص 232) حول مهمة الحسبة في ضبط Surdon (مؤكدا ما سجله عنها (سوردون التوازن الاقتصادي والاجتماعي في الوسط المغربي وقد بلغت تقاليد التكافل الاجتماعي مبلغا كاد يصل إلى نوع من التأمين Propos d'un vieux marocain p. فكان إذا حصلت آفة ما في القبيلة تتضامن الجماعة في تحمل عواقبها (راجع ((Assurance 128 Moïse Nahon,)

وحتى الفقير الأجنبي عن القبيلة كان يجد المأوى والمآكل والمشرب مدة ثلاثة أيام ينتقل بعدها لقبيلة أخرى ليحظى بنفس المعاملة المغرب المجهول م.1 ص 56) . ولطلبة العلم حظوة أعلى في هذا المجال Moulieras (سوردون- الأعراف ص 199) وكذا (موليراس

فلاحي البادية بأخلاق Moïse Nahon (أما الخلق الإسلامي الرصين فكان يتجلى في سلوك العامة أنفسهم حيث وصف (ناهون .عالية ورعاية سامية للغير ورأي الغير دون اعتبارالنسب أو اللون

ومن أغرب العادات التي وصفها (موليراس) (المغرب المجهول ج 2 ص177) انتشار كرة القدم بين الطلبة الذين كانوا يحتكرون هذه اللعبة حيث لم يكن يسمح بها لمن لا يعرف القراءة والكتاب وكان حتى صغار الموظفين الذين تجاوزوا الأمية ولو بقليل يعفون من الضرائب والخدمة العسكرية

تلك عجالة مقتضبة مما حللناه من آراء الغربيين حول مظاهر الحضارة المغربية وأعرافها وعاداتها في العديد من مصنفاتنا باللغتين العربية .والفرنسية